الفصل الثانى

أزمة الأدب النسوى

إن الظاهرة التى يحرص هذا الكتاب على تسجيلها وتحليلها ونقدها تتمثل فى أن الأزمة العالمية التى يعانى منها الأدب النسوى، وتشكل أرضًا مشتركة لمعظم الكاتبات والأديبات النسويات فى شتى أرجاء العالم، تمثل تهديدًا حقيقيًّا، سواء للحركة النسوية بصفة عامة أو الحركة الأدبية المواكبة لها بصفة خاصة، اللتين اعتادتا الدخول فى نفق مظلم بعد تعثر كل مرحلة من مراحلهما؛ بحيث قسمتهما الدراسات والأبحاث إلى ثلاث موجات: الموجة النسوية الأولى، والموجة النسوية الثانية، والموجة الثالثة التى عرفت باسم «ما بعد النسوية». وهذا يدل على أن قوة الدفع الفكرى والأدبى والاجتماعى والثقافى فى هذه المراحل، لم تكن تملك القدرة على التواصل والاستمرار؛ لأنها قابلة للتهافت والهزال بل والموات، لتسرب الطاقة التى حاولت حشدها فى كل موجة منها. وهذا يعنى أن الحركة النسوية تعانى من خلل كامن فيها أكثر من معاناتها من هجوم المجتمع عليها، وتربص الرجل بها لؤاد أية يقظة أو صحوة أو انطلاقة، يمكن أن تجعل منها جزءًا عضويًّا فعالاً وراسخًا فى الحراك الفكرى والأدبى والثقافى والاجتماعى فى المجتمع بصفة عامة.

فمنذ البوادر الأولى للحركة النسوية فى العقد الأخير من القرن الثامن عشر، والتى تؤرخ بصدور كتاب مارى ولستونكروفت «دفاع عن حقوق المرأة» فى عام ١٧٩٢، ظهرت التناقضات والصراعات والأوهام والتقلبات، التى تحولت مع الأيام إلى خصومات بل ومعارك بين الكاتبات والأديبات أنفسهن. وبالطبع استغل الرجال هذه السلبيات لتضخيمها وتحويلها إلى سهام مسمومة موجهة إلى صدور قائدات الحركة. ونظرًا لأن الأدب، سواء الروائى أو المسرحى، كان سلاحًا لصيقًا بالحركة وصوتًا لها، فإنه عانى بدوره من هذه السلبيات، فانحسر فى دائرة الدفاع عنها، وغالبًا بأسلوب مباشر غير فنى، وبالتالى لم ينتج أعمالًا تفرض نفسها على الخريطة الأدبية للعالم المعاصر. ولذلك كانت الحصيلة النقدية والفكرية للحركة أكبر بكثير من الحصيلة الأدبية والإبداعية.

obeikandl.com

ولذلك طغى مصطلح النقد النسوى على مصطلح الأدب النسوى، الذى اعتبر مجرد بوق للفكر النسوى، وأصبح من المستحيل دراسة الأدب النسوى كقيمة جمالية وفنية، منفصلًا عن توجهاته وآلياته وتفاصيل الفكر النسوى.

وقد اتضحت هذه الحقائق فى مؤتمر دولى عقد خصيصًا بمواجهتها ودراستها، وتحليلها بصفتها عوائق وعقبات، تسد الطريق فى وجه الحركة النسوية، وتنذر بالقضاء المبرم عليها. ففى مطلع عام ٢٠٠٣ ، عقد هذا المؤتمر فى جامعة سوانسى بمقاطعة ويلز فى بريطانيا، وكان المحور الذى دارت حوله الأوراق والأبحاث المقدمة هو «الرواية التاريخية: النساء والتاريخ والتأليف». وقد حضره عدد كبير من المتخصصين فى مختلف فروع العلوم النسانية، من أربع وعشرين دولة. واشتركوا فى إلقاء الأبحاث ومناقشة تاريخ المرأة فى الثقافات والحضارات المختلفة والإبداع الأدبى النسائى المتنوع، منذ العصور الوسطى حتى نهاية القرن العشرين. وقد تمت دعوة مؤلف هذا الكتاب إلى ذلك المؤتمر؛ ليلقى بحثه عن «خطاب التنوير عند هدى شعراوى»؛ لأنه سبق أن أصدر فى عام ١٩٨٨ كتابًا بعنوان «هدى شعراوى وعصر التنوير».

وكان المؤتمر يسعى لتوثيق حركات التنوير الثقافى والتقدم الحضارى، التى تتزعمها المرأة فى المجتمعات التى شهدت نهضة ثقافية واضحة، وما حققته تلك الحركات من إنجازات مادية ملموسة على أرض الواقع. وقد اهتم «مركز بحوث الجنس والنوع فى الثقافة والمجتمع» بقضايا المؤتمر، فأصدر عددًا خاصًّا من مجلته عن «مستقبل الحركة النسوية»، ركزت بعض مقالاته على تأثير هذه الحركة، التى تجاوزت نطاق الكتابة الأدبية فى مجالات التحليل النفسى والدراسات الثقافية والإعلامية والعلوم الاجتماعية والتاريخ وغيرها. كما ضم العدد مقالات وأبحاثًا عن الأبعاد السياسية للحركة النسوية، والتغيرات التى طرأت عليها وأهدافها الثابتة والمتغيرة، وتعاملها مع قضايا الجنس والعرق والطبقة وغيرها. ويعتبر المؤتمر وما تبعه من حراك فكرى وثقافى، مجرد مثال على اهتمام الأوساط الأكاديمية بمتابعة الدور الذى تسعى الحركة النسوية به فى إعادة صياغة وتشكيل الحياة الاجتماعية المعاصرة؛ وفقًا لمبادئها وأفكارها.

obeikandl.com

وتتجلى أزمة الحركة النسوية أو الأدب النسوى، فى أن كثرة ما كتب عنها، وخاصة فى أمريكا، لم يقلل من التضارب فى الآراء وجولات الجدل والنقاش حول الأبعاد والخصائص الحقيقية المميزة لها. وإن كان التيار البارز فى هذه التخبطات، يشير إلى حركة سياسية محددة سادت فى الولايات المتحدة وأوروبا فى الستينيات والسبعينيات؛ لتحقيق مزيد من حقوق المرأة، وبخاصة فى مجال العمل. ثم بدأت تنحسر وتفقد فاعليتها وقوة دفعها وحماس المثقفين لها؛ بل إنها تخلت هى نفسها عن أهدافها الأساسية إلى المطالبة بأمور يعتبرها الكثيرون ثانوية، وتمثل تراجعًا واضحًا فى موقف المرأة من المثل العليا، التى كانت تنادى بها، فى حين يرى البعض الآخر أن مفهوم الحركة اتسع ليشمل كل الأوضاع المتردية وحالات التمييز والاضطهاد، التى تواجه المرأة فى مختلف الثقافات، وأن الحركة تحاول إبراز مطالب المرأة فى هذه الثقافات وليس فى الثقافة الغربية وحدها، ورفع الظلم الذى يفرضه المجتمع الأبوى والثقافة الذكورية على المرأة.

وعلى الرغم من الاتفاق العام حول تقسيم تاريخ الحركة النسوية إلى ثلاث موجات متبلورة، إلا أن الاختلافات بين الأطراف المعنية ظلت عميقة ومتجذرة، مما ضاعف من وطأة الأزمة التى تسرى فى عروق الحركة والأدب التابع لها.. كانت الموجة الأولى قد برزت منذ منتصف القرن التاسع عشر للمطالبة بالحقوق السياسية للمرأة إلى أن تحقق لها ذلك فى الربع الأول من القرن العشرين، ولكن هذه الموجة انحسرت بين الحربين العالميتين، الأولى والثانية. ثم عادت من جديد فى أواخر الستينيات والسبعينيات، لتصبح بمثابة الموجة الثانية، التى كانت بمثابة قمة الحركة النسوية بكل فروعها وتوجهاتها المتنوعة والمتضاربة ومطالبها المتعددة، التى تمثلت فى توفير مساحة أكبر من المساواة بين الجنسين، وإزالة الفوارق المصطنعة فى مختلف مجالات الحياة وفى مقدمتها التعليم والعمل، بل وإقرار حق المرأة فى العلاقات الجنسية الحرة. وسرعان ما برزت الحركات والاتجاهات والمواقف المضادة، التى لم تجد فى مجريات الأمور خروجًا على التقاليد والأوضاع والقيم المتوارثة فحسب، بل تهديدًا لكيان المجتمع نفسه.

وبالفعل تعرضت الحركة النسوية، وخاصة فى أمريكا، لكثير من النقد والهجوم وحركات الرفض التى تصدت لاندفاعها نحو تحقيق أهدافها واتهمتها بالمبالغة والتطرف، والخروج على كل الأوضاع والقيم السائدة فى المجتمع. بل وشارك فى هذه الحملة كاتبات أمريكيات بارزات من أمثال كريستينا هوف هومرز، التى رفضت نزعة المبالغة والتطرف التى تميل إليها بعض تلك الحركات، وأن الدراسات النسوية ذاتها التى تقدمها بعض الجامعات، دراسات عديمة الجدوى لافتقارها إلى الطابع الأكاديمى الجاد.. كذلك تذهب الكاتبة والشاعرة الأمريكية إيف ميريام إلى القول بأن كثيرًا جدًّا من الكتابات التى تنادى بتحرير المرأة هى أعمال دعائية وسطحية وخاوية، وتعتمد على إثارة العواطف، لدرجة أن القليل جدًّا منها هو الذى يعتمد على البحث والدراسة والتنوير والاستيعاب. وبالطبع رحب كثير من السياسيين المحافظين، ومن اليمينيين ورجال الدين وبعض الأوساط المالية فى الولايات المتحدة بهذا الهجوم ضد المقولات النسوية المتطرفة، مثل: إمكان الاستغناء تمامًا عن الزواج باعتباره نظامًا يفرض كثيرًا من القيود على حرية المرأة وانطلاقها، وأن عدم الزواج لن يترتب عليه بالضرورة حرمان المرأة من ممارسة حقوقها الجنسية، أو إنجاب الأطفال إذا أرادت ذلك، وأن الرجل هو فى حقيقته شيء ثانوى يمكن الاستغناء عنه، دون أن يؤدى ذلك إلى توقف الحياة، وهو المضمون الفكرى الذى تكرر مرارًا فى مسرحيات وروايات نسوية عديدة.

ولعل من أخطر المضامين وأكثرها تطرفًا فى بعض المسرحيات والروايات النسوية، أنها تدعو إلى التمرد على السلطة أيًّا كان نوعها، لدرجة أنها وصفت «بالنسوية الفوضوية»، وهو المصطلح الذى يشيع فى بعض الكتابات والأعمال الأدبية فى أمريكا، بل وفى أعمال بعض الكاتبات النسويات، من أمثال بيجى كونيجرز فى كتابها «الفوضوية والنسوية»، التى تصرح فيه بأن الدولة ليست سوى تنظيم ذكورى أبوى متسلط، يجب التخلص منه؛ حتى تتخلص المرأة من شعورها بالاغتراب فى المجتمع. وهذا لا يعنى سوى أن الحركة النسوية لا تهدف إلى السيطرة وامتلاك القوة والنفوذ، بقدر ما تهدف إلى

القضاء على قوة ونفوذ الطرف الآخر، كما تدعو إلى إعادة صياغة وتشكيل المجتمع الراهن، بإقامة نمط اجتماعى جديد لا يحقق فقط مطالب المرأة، وإنما يقوم على نبذ الثقافة الذكورية التى ظلت تسيطر على المجتمع خلال كل مراحل التاريخ، مما يتيح الفرصة لتفسير الأشياء فيه من وجهة نظر نسوية. وقد أثار هذا التوجه المخاوف والشكوك لدى قطاعات عريضة من المجتمع، حفزتها على محاربة هذا التوجه بصفة خاصة، والحركة النسوية بصفة عامة.

ويبدو أن البركان النسوى قد انفجر أخيرًا بعد كبت طوال عصور تكون المجتمع البشرى، إذ إن بعض الجمعيات النسوية المتطرفة التى تدعو إلى العنف بكل صوره وأنواعه كوسيلة؛ لتحقيق مطالبها عنوة من المجتمع، إذا اقتضى الأمر ذلك، منادية بتقطيع أوصال الرجال الذين يتصدون لها، فقد أطلقت إحدى هذه الجمعيات على نفسها اسم «جمعية تقطيع أوصال الرجال»، وقامت هذه الجمعية بتكتيل مجموعة من الناشطات فى الحركة النسوية، ممن يتميزن بالتمرد والشراسة والعنف حتى فى حياتهن الخاصة؛ ليسلكن كما يفعل «البلطجية» فى مواجهة خصومهم.. كن ينظرن إلى غيرهن من أعضاء الجمعيات النسوية الأخرى نظرة استعلاء واستخفاف، باعتبارهن «سيدات مجتمع مترفات وسلبيات وعاجزات عن أى عمل، ولكنهن يخفين ذلك العجز خلف قناع شفاف وزائف من الرقة والدبلوماسية والنفاق، ويؤثرن التعبير عن مطالبهن بالالتجاء إلى الأساليب السلمية، بما فى ذلك الإضراب السلمى الوديع».

ولهذه الجمعية التى كانت واحدة من جمعيات الستينيات، التى شهدت قمة ازدهار الحركة النسوية، «مانيفستو»، يحدد فلسفتها وتعاليمها، وينص فى بعض بنوده على أن «الحياة الاجتماعية فى هذا المجتمع (أمريكا) هى، على أفضل الأحوال، حياة مثيرة للضجر والملل وتخلو تمامًا من كل ما يتناسب مع المرأة واحتياجاتها؛ بحيث لم يعد أمام المرأة ذات التوجه المدنى، والتى تعرف معنى المسئولية وتبحث فى الوقت نفسه عن الإثارة، سوى أن تعمل مع غيرها من النساء على إسقاط الحكومة، والقضاء على نظام التعامل النقدى،

وإرساء قواعد التشغيل الذاتى فى مختلف مجالات العمل وتحطيم بل وإبادة نوع الذكور». ويواصل المانيفستو أو البيان النسوى فى عرض تعاليم الجمعية، فيقرر أنه قد أصبح فى الإمكان الآن من الناحية العملية، الإنجاب دون مساعدة الذكور، بل إن من الممكن الاكتفاء بإنجاب الإناث فقط، ولذلك فإنه يتحتم على النساء العمل، فى التو واللحظة، على تحقيق ذلك؛ إذ ليس الذكر إلا مصادفة بيولوجية عارضة، كما أن الجينات الذكرية ليست فى حقيقتها إلا جينات أنثوية ناقصة.

وبصرف النظر عن هذه الاتجاهات المتطرفة داخل الحركة النسوية، فإن بعض الكتاب يرون أن الحركة سوف تزداد ازدهارًا وتقدمًا فى المستقبل. وهذا ما تؤكده ايستل فريدمان فى كتابها «لا رجعة إلى الوراء: تاريخ الحركة النسوية ومستقبل النساء» عام ٢٠٠٢، الذى ترى فيه أن النسوية ثورة عالمية، ترمى إلى تصحيح عصور كثيرة من الأوضاع الاجتماعية والقيم الثقافية المتجذرة منذ بداية المجتمع البشرى، والتى تهمش دور المرأة فى الحياة. فليس هناك ما يبرر المخاوف حول مصير الحركة ومستقبلها؛ لأنها تنهض على منطق إنسانى متين وراسخ، وهو طلب المساواة بين الجنسين، نظرًا لعدم وجود فوارق جوهرية فى تكوينهما. وبالتالى ليس هناك ما يؤيد أن يكون الرجل هو المعيار، فى حين تصبح المرأة بمثابة الانحراف عن ذلك المعيار.

ورغم كل هذا التفاؤل، فإن إيستل فريدمن تتساءل عما إذا كانت الفترة الحالية أو العالم المعاصر سوى يشهد اندثار الحركة النسوية، بعد أن أمكن دمج المرأة ومشاركتها فى كل أنشطة الحياة اليومية؛ مما قد يوحى بأن الحركة قد استنفذت أغراضها؟ لكن إيستل فريدمان تواصل تفاؤلها عندما تجيب هى نفسها عن ذلك التساؤل بقوة ووضوح، بالنفى لأن ما يسمى بالصراع بين الذكر والأنثى، لم يصل بعد إلى منتهاه؛ إذ إن هناك تحديات جديدة تطفو على السطح باستمرار، ومشكلات كثيرة لايزال المجتمع يرفضها، ولم تجد لها حلًّا نهائيًّا، وفى مقدمتها الحرية المطلقة للمرأة فى ممارسة الحقوق الفيزيقية والإنجابية، التى قد تترتب عليها آثار سلبية خطيرة على المجتمع مثل انتشار أمراض انعدام المناعة، وحق الإجهاض الذى تحرمه الأديان.

ويتواصل التفاؤل بين بعض الناشطات فى الحركة النسوية، فيعبرن عن إمكان التغلب على كل العقبات والاحتجاجات والانتقادات، التى توجه إلى هذه الحركة، لو اهتم المعارضون بتفهم حقيقة أهدافها، التى لا تدعو أبدًا إلى الصدام بين الرجل والمرأة، بصرف النظر عن ممارسات الاتجاهات المتطرفة؛ إذ إن الحركة سوف تثبت قدرتها على الصمود فى المستقبل، مثلما أفلحت فى البقاء خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية رغم كل ما أصابها من تراجع. ومع ذلك فإن الحركة النسوية تخضع لعديد من المناقشات والتوقعات حول مصيرها، والشكل الذى قد تتحول إليه بحكم الظروف المتغيرة، ومتطلبات المستقبل، وبحكم الاعتراضات والانتقادات التى توجه إليها الآن، والتى لابد أن تتدخل فى تحديد الشكل الجديد للحركة، إذا قدر لها الاستمرار فى الوجود.

obeikandl.com